

أزمة الثقافة في نظر مالك بن نبي

The crisis of culture in the view of Malik Bennabi

بن سليمان عمر¹

¹ جامعة تيارت (الجزائر)، mostag16@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/01/10 تاريخ القبول: 2022/01/16 تاريخ النشر: 2022/01/23

ملخص:

يتناول الموضوع الكيفية التي عالج بها المفكر مالك بن نبي الثقافة كمفهوم حضاري في المجتمع، فالثقافة عنده ركن أساسي من أركان النهوض الحضاري إلى جانب التراب والإنسان والزمن. والثقافة المقصودة عنده بالطبع هي الثقافة الصالحة التي ترفع من قيمة الإنسان وتعمل على تحريره من سطوة السلطة وقمع المجتمع وتجنّبه من الخرافة والتقليد وتقربه دائما إلى الواقع الذي يقربه إلى التفاعل لا الإنفعال وإلى المبادرة والحاجة إلى التغيير ومواكبة العصر وإثبات الشخصية .

و بالمعنى العام فالثقافة الذي يقصد مالك بن نبي هي أسلوب الحياة في مجتمع معين والسلوك الإجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع . وهي في نظره المحيط الذي يعكس حضارة معينة الذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وهي الحيز الذي يعبره الإنسان إلى الرقي والتمدن وعلى النخبة المثقفة أن تحمل المشعل فهي القاعدة والحافز المشجع على الرقي والتحضر .
كلمات مفتاحية: الثقافة، الأزمة، التخلف ، النهضة.

Abstract:

Culture by malik bin nabi ,is assential element of civilizational advancement along with soil ,man andtime , and the culture in which it is intended , of course,is a good culture that elevates the value of man and works to free him from the

power of power and suppress the society and avoid him from myth and tradition and always bring him closer to the reality that brings him closer to interaction the need to change and keep up with the times and personal evidence and the general sense, the culture that means malik bin nabi is the way of life in a particular society and social behavior that characterizes the actions of the individual in that community .

The culture in the eyes of the son of a prophet is the ocean that reflects a particular civilization that moves and moves in the energy of civilized human being the space that man passes to sophistication and the intellectual elite to carry the torch is the base on which the masses rise to the level of civilization .

Keywords: Culture; the crisis; backwardness; renaissance.

المؤلف المرسل: بن سليمان عمر،

1. مقدمة:

تقام الحضارة في نظر مالك بن نبي وفق عوامل ثلاثة :الإنسان ، التراب ، الوقت إلى جانب الثقافة التي تلعب دور الرابط بينها" ولأجل تحقيق ذلك ، يرى مالك بن نبي أنه من الأصوب أن نبدأ بالثقافة الصالحة لأنها هي الدليل إلى جعل العناصر الأخرى فعالة ومترابطة. بناء على هذا التصور فإن إصلاح الثقافة يستهدف أولاً: الرفع من قيمة الإنسان، وتحريره من سطوة السلطة وقمع المجتمع وقيود الخرافة والتقليد وهذا نزولاً عند الآية الكريمة التي تعبر عن إنعتاق الإنسان باعتباره واحداً من أبرز أهداف الرسالة السماوية.

" وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ (الأعراف أ 157)

"فالثقافة كمكتسبات من شأنها أن تحصن الفرد و تعمل على تقوية مناعته ضد المثبطات من جهة، وضد الاكتساح أو الاستعمار الناشئ عن الدوبان في فلسفة حضارية أخرى تنتهي بالسيطرة والإستلاب المؤدي إلى تغييب مهمة

الفرد الأساسية في المجتمع المسلوب وما يتبع ذلك من ترد وإضمحلال للهوية أو الخاصة التي كان للبعد الثقافي دور في الحفاظ عليها." (ضيف الله بشير: 2005، 83)

وباعتبار الثقافة عامل من عوامل النهوض ، فلا بد أن نصل إلى تحديد معناها الحقيقي بالمنظور البنابي حتى نتمكن من معرفة الأبعاد الحقيقية التي كان يأمل في تحقيقها برؤيته، لهذا الجانب على غرار الجوانب المتطرق لها والتي ستفرض علينا أن نتعرض لها بالتفصيل كما وقف عندها مالك بن نبي.

عليه نقول أن فهم مالك بن نبي للثقافة يختلف عن المفاهيم الكلاسيكية المعروفة، فهو يراها ذلك الكم المتراكب من الصفات. والقيم والخصائص المكتسبة طيلة مرحلة زمنية تقاس بحياة الفرد المتواجد داخل محيط أو نسيج اجتماعي: "فهي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولى في الوسط الذي ولد فيه. وبذلك فالثقافة هي المحيط الذي يُشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته و المحيط الذي يعكس فيه حضارة معينة والذي يتحرك في نطاقه الإنسان ومعطيات المجتمع.(محمد شاويش: 83)

والثقافة بهذا المفهوم هي الرصيد الأولي الدافع إلى المبادرة والحاجة إلى التغيير ومواكبة العصر في الرؤية المستقبلية ومحاولة إثبات الشخصية، كما ذهب إلى ذلك الدكتور أسعد السحمراني في تعرضه لمفهوم الثقافة فقال "إنها المهد المنشئ لشخصية الإنسان التي تفرض عليه قيمها وقواعدها، إذ بالغزو الثقافي لشخصية الأوربي ازدادت حركة الاغتراب وقوي نفوذ الاستعمار الذي استقر في عمق قناعات بعض الناس بتأثير من الفكر الأوروبي". (أحمد السحمراني: 206)

عليه لا بد أن ندرك أن للثقافة أهمية كبيرة في تكوين الفرد وبناء شخصيته "فهي الرحم الذي تنمو فيه أفكاره وتطلعاته، والتي تتحدد فيه قيمه

وأهدافه وهي التي تحقق التوازن في علم الإنسان الداخلي، وهي كذلك التي تعلّمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره من خلالها بشكل متكامل دون أفضليات، فالثقافة تُنمي الجانب المعنوي في الإنسان والمجتمع بمستوى متوازن كما ينمو الكائن الحي بكل أعضائه في وقت واحد". (مالك بن نبي: 137)

إذن فالسلوكيات التي تعمل على تجسيدها في المجتمع فكلها تدعوا إلى اليقظة والتحرر والوقوف للموانع التي تحول دون الوصول إلى التغيير أو التحديث. فالثقافة كما يريد مالكا بن نبي هي تلك التي تُبنى وتوجه وتثابر ولا تعرف الخمول، فهي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه. (مالك بن نبي: 71)

عليه فالثقافة هي نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة فالشرط الأول لتحقيق مشروع ثقافي هو الصلة بين الأشخاص، أي أن أساس بناء ذلك هو دائما في نظر مالكا بن نبي التركيب والتأليف بين الأشخاص والمقصود هو عالم الأشخاص بالمعنى الحضاري العام.

المجتمع الذي يريده أن يؤدي وظيفة وسط المحيط الذي يعيش فيه، فالثقافة الذي يقصد مالكا بن نبي ليست هي تلك التي تدرس في المدارس وتشكل على مقاعدها إذ ذلك ما هو إلا عامل مساعد من عوامل الثقافة.

إذ لا بد أن ندرك أن "الثقافة لا تضم في مفهومها الأفكار فحسب وإنما تضم أشياء أعم من ذلك كثيرا تخص كما نرى أسلوب الحياة في مجتمع معين من ناحية، كما تخص السلوك الاجتماعي الحضاري الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى" (مالك بن نبي: 11). لأن تنظيم المجتمع وحياته وحركته وسلوكاته، تراجعه، جداله، فوضاه، ركوده كلها ذات علاقة بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع. فإذا ما تغير هذا النظام فإن جميع الخصائص

أزمة الثقافة في نظر مالك بن نبي

الاجتماعية تتعدل في نفس الاتجاه. إن الأفكار لأهميتها حسب مالك بن نبي تكون في مجموعها جزءا هاما من أدوات التطور في مجتمع معين.

"وعلى هذا الأساس نجد أن أهمية الأفكار في حياة مجتمع معين تتجلى في صورتين: فهما إما أن تؤثر كعوامل نهوض بالحياة الاجتماعية وإما أن تؤثر على عكس ذلك كعوامل تراجع، بحيث تجعل النمو الاجتماعي صعبا و مستحيلا "أي من الصعوبة بمكان التحكم فيه.(مالك بن نبي: 12)

لذلك فضلنا أن نوزع عملنا المتواضع هذا وفق الإشكالية التالية: هل الثقافة أسلوب حضاري مجتمعي أم تعبير فكري فحسب ؟

2. مفهوم الثقافة:

رغم كثرة التعاريف التي وصف بها بن نبي الثقافة في كتابه مشكلة الثقافة إلا أنها تعاريف تدور في فلك واحد مثل:

الثقافة مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة والوسط الذي ولد فيه.

الثقافة هي المحيط الذي يعكس حضارة معينة والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر.

الثقافة هي الجسر الذي يعبره الناس إلى الرقي والتمدن وهي أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ الآخر من السقوط من أعلى الجسر إلى الهاوية.

"فالثقافة كمكتسبات من شأنها أن تحصن الفرد و تعمل على تقوية مناعته ضد المثبطات من جهة، وضد الاكتساح أو الاستعمار الناشئ عن الذوبان في فلسفة حضارية أخرى تنتهي بالسيطرة والإستلاب المؤدي إلى تغييب مهمة الفرد الأساسية في المجتمع المسلوب وما يتبع ذلك من ترد وإضمحلال للهوية أو

الخاصية التي كان للبعد الثقافي دور في الحفاظ عليها." (ضيف الله بشير: 2005، 83)

وباعتبار الثقافة عامل من عوامل النهوض ، فلا بد أن نصل إلى تحديد معناها الحقيقي بالمنظور البنائي حتى نتمكن من معرفة الأبعاد الحقيقية التي كان يأمل في تحقيقها برؤيته، لهذا الجانب على غرار الجوانب المتطرق لها والتي ستفرض علينا أن نتعرض لها بالتفصيل كما وقف عندها مالك بن نبي.

إذ "لابد أن نعرف الثقافة على أنها توجه الطاقات الفردية لتحقيق بناء الفرد في الداخل بالنسبة إلى مصلحته، ولتحقيق مكانة في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع". (ضيف الله بشير: 2005، 89)

3. مفهوم الحضارة:

يقول ابن نبي الحضارة هي مجموع الشروط الأخلاقية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من اطوار وجوده منذ طفولته المساعدة الضرورية (مالك، 1991 ص 43). في هذا المفهوم نرى أن مالك بن نبي يربط بين الإمكان والإرادة ، وة يؤكد على ان العوامل المعنوية تزود الفرد بالغرادة ، و العوامل المادية تمكنه من القدرة على الغنجاز و تؤدي به غلى التطور و مواكبة العصرنة ن و يقول في المفهوم الثاني : أن الحضارة ليست أساس تكديس منتوجات حضارية ، بل هي بناء مركب إجتماعي ،يشمل ثلاثة عناصر فقط ، مهما كانت درجة تعقيدها كحضارة القرن العشرين ...و يجب أن نلتفت إلى مختبر التاريخ ليدلنا على المركب الذي يتدخل في تركيب العناصر الثلاث ، الإنسان ، التراب، الوقت . (مالك، 1979 ص 198).

4. الثقافة مفهوم فكري:

عليه يمكن القول أن العالم العربي الإسلامي يختلف في موقفه من الثقافة عن العالم الغربي وعن ما في العالم، فليست مشكلته منحصرة في محاولة فهم

أزمة الثقافة في نظر مالك بن نبي

"الثقافة" وإنما في تحقيقها بصورة عملية ومسايرتها للواقع الاجتماعي أي توظيفها كوسيلة عصرية تمكننا أن نخطوا خطوة إلى الأمام في طريق تحقيقها عمليا على أن تكون الخطوة الجديدة "تركيبا" لعناصر الثقافة التي بها نرقى ونتطور وبدونها نتراجع فإذا ما واصل مجتمع معين تطوره الطبيعي فإنه يؤدي عملية تركيب ثقافته بصورة تلقائية تنحصر في تنظيم المقومات الثقافية في وحدة متجانسة تمثل ثقافته وليس هذا منهجا يقوم على أساسه تنظيم الثقافة وإنما هي ظاهرة طبيعية.(مالك:59).

إذ يجب أن نلاحظ هنا أن كل ظاهرة اجتماعية لا تستقر في صورة نشأتها، فهي كائن مرتبط بحياة المجتمع، بينها وبين هذه الحياة تفاعل جدلي ينسي نتائجها في المجتمع من حد الصفرة إلى نقطة اللارجوع. فالثقافة تنمو معها أيضا نتائجها من الحد الذي يمكن تداركه بالتعديل البسيط إلى الحد الذي يصبح فيه التعديلا مستحيلا: أو لا يمكن إلا بثورة ثقافية عارمة وجادة تكون في الحقيقة بمثابة انطلاقة جديدة للحياة الاجتماعية.

والظرف في هذه الحالة يخلق أمام مجتمع متقهقر مثل مجتمعاتنا العربية الإسلامية إستحالة لا يستطيع التغلب عليها فيستسلم (كما يقولون) للواقع بينما يخلق هذا الظرف نفسه بالنسبة لمجتمع آخر فرصة لدفعة جديدة مستحدثة لحركية مثل الدفعة التي عملت بها الكثير من المجتمعات وعلى رأسها المجتمع الصيني والتي سميت بالثورة الثقافية على كل ما هو سلبي لمواجهة أي واقع يواجهه من أجل تعديله في الاتجاه الذي يريده ويراه صالحا له وبين هاتين الحالتين، بين الاستسلام التام لـ "الواقع" وبين الثورة العنيفة على أي "واقع" لا يستساغ، درجات من الخنوع والتفوق والهروب من المسؤولية، هي بالضبط درجات الأزمة الثقافية التي يتخبط فيها المجتمع، والتي تحاول بكل جهدها

إخفاءها أحيانا السلطات السياسية المتورطة أو الانتهازية لأنها تعودت على أن لا تسمي الأشياء بمسمياتها.

إن هذه الانتهازية وهذه التورطات وهذه الشطارة في إخفاء الواقع باسم الواقعية كلها من معدن واحد، معدن "الأزمة الثقافية" المعدن الذي تصاغ منه كل الفاجعات وكل النكسات وكل المحاولات الفاشلة سواء في الميدان الصناعي أو الزراعي أو الأخلاقي أو السياسي أو العسكري الأمر الذي يؤدي حتما إلى التراجع، إذ كيف يمكن مواكبة العصر والتحدث عن النهضة خاصة إذا أدركنا أن الواقع الذي يعيشه الفرد هو واقع أزمت من الصعب حلها. (مالك: 88-89)

إن المشاكل العديدة التي نطلق على مجموعها مصطلح "التخلف" هي في الواقع تغييرات مختلفة عن مشكلة واحدة ومفردة تواجه كل بلاد متخلفة أي أنها مشكلة حضارة إذ أن الحضارة ليست كل شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية (مالك: 1991، 97). بحيث يجد هذا الشكل نوعيته في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة ليس المجتمع المتخلف في حالة تكيف معها لا من حيث رغبته ولا من حيث قدرته أو بعبارة أخرى لا من حيث أفكاره وتوقعاته.

هذه القدرة لدى المجتمع المتحضر ناتجة ليس عن تكديس منتجات الحضارة ولكن عن تركيب أصيل لعناصر: التراب، والإنسان والزمن. عوامل الإرتكاز التي من الواجب على كل مجتمع أراد النهضة الإعتماد عليها أو الإنطلاق منها، أي استغلالها أحسن استغلال إذ تدلنا على الاتجاه الذي ينبغي لنا أن نسلكه إزاء مشكلة الثقافة التي تجابهنا اليوم.

ولهذا فإن المشكلة كما أشار إليها مفكرنا مالك بن نبي تطرح بصفة عامة ضمن ثلاثة أوضاع مختلفة:

كيف تتكون ثقافة معينة؟ ما هو الدور الذي تؤديه؟ كيف يتم إعدادها؟ إذ الأوضاع الثلاثة للمشكلة كلها ذات قيمة على الصعيد النظري إلا أنه من الواضح

أزمة الثقافة في نظر مالك بن نبي

أن الوضع الثالث هو الذي يتضمن الجواب عن المرحلة التاريخية التي تنتظم بلاداً كالجزائر باعتبارها بلاداً بصدد الخروج من العهد الاستعماري المتسبب في الركود والتقهر الذي أصاب مجتمعتها، عليه نقول أن مشكلة الثقافة حسب مالك بن نبي هي التي تواجهنا على رقعة البلدان المتخلفة ولهذا فنحن عندما نقوم بالموازنة بين النمو والتخلف على المستوى الجماعي أو بين الثقافة وعدم الفعالية على المستوى الفردي، نكون قد قمنا بالمقارنة بين مستويات ثقافية معينة من ناحية وبين شيء معين يمكننا لكي نحافظ على الروح المنهجية التي نعتمدها. (مالك: 1991، 81-82)

وعلى هذا فنحن عندما نطرح مشكلة الثقافة في بلاد متخلفة معينة لا نملك الخيار عند طرحها، فالثقافة محددة بواسطة كل معطيات التخلف. بحيث يتعين علينا أن نطرح المشكلة بصورة حاسمة أي: كيف يتم إعداد ثقافة معينة؟

فهذا لا يجعلنا نُهمَل الوضعين الآخرين لأن وجهة نظرنا يمكنها أن تمثل هنا حقلاً أوسع للتحريات وأن تنفتح على ثقافات أخرى إذا ما أردنا إدراك الفعالية الضرورية التي تدفعنا إلى النهضة ومواكبة العالم الثقافي المؤدي إلى التفتح والعصرنة.

فالمشكلة تطرح من وجهة النظر العملية، وبشكل عام فإن خصائص العمل على الصعيد الفردي أو الجماعي تستند على العلاقات الداخلية بين مقاييسه الثابتة في العالم الثقافي: الأشياء الأشخاص الأفكار هذه المقاييس الثابتة تتداخل في نشاط المجتمع عبر جدلية تاريخية تتوافق مع مرحلته التاريخية في كل لحظة من مسيرته وتتوافق في كل لحظة فيما علاقة معينة بين الأشياء والأشخاص والأفكار في تركيب العمل، وتكون هذه اللحظات من اللحظات العادية في تلك الجدلية إلا أن هناك لحظات تحدد علاقة أكثر خصوصية يزيد فيها ثقل أحد هذه

المقاييس على المقاييس الأخرى، عندما يكون النشاط مركزا على الأشياء أو على الأشخاص أو على الأفكار، هنا يكون ثمة إخلال بالتوازن يميز هذه اللحظة الخاصة من التطور لمجتمع ما، إنها مرحلة غير طبيعية في جدلية عالمه الثقافي. (مالك:1988، 76)

فالمجتمع الإسلامي قد أدرك منذ قرن نهاية أشواط حضارته وهو اليوم من جديد في مرحلة ما قبل الحضارة ومنذ قرن تقريبا يحاول أن يتحرك من جديد لكن إقلاعه يبدو عسيرا بالمقارنة مع مجتمع (معاصر) كاليابان أو مجتمع جاء إقلاعه متأخرا كالصين إذ بالرغم من ذلك صنع طابعه.

هذه الصعوبات قد فسرت بطريقتين مختلفتين:

بالنسبة لأنصار الموضوعية الاستعمارية فإن عامل التأخر عن الإقلاع هو الإسلام وبالنسبة لأنصار الموضوعية القومية فإن الاستعمار هو المسؤول عن ذلك. وعلى هذا الأساس أو نتيجة لهذه المظاهر تجد أن المجتمع الإسلامي يعاني في الوقت الحاضر بصورة خاصة، لأن نهضته لم يخطط لها، ولم يفكر بها بطريقة تأخذ باعتبارها عوامل التبدد والتعويق. فمثقفوا المجتمع الإسلامي كما أشار له مفكرنا مالك بن نبي لم ينشئوا في ثقافتهم جهازا للتحليل والنقد إلا ما كان ذا اتجاه تمجيدي يهدف إلى إعلاء قيمة الإسلام بالرغم من أن الإسلام بريء من كل هذه العطالات أو التبريرات التي لا تعود إلا بالتراجع والجمود على المجتمعات الإسلامية. (مالك:1988، 77-78)

الثقافة هي صعيد من الفكر لا صلة له بمستوى الدروس الملقنة، سواء في نوعها أو في مداها أو في كميتها، إنها كفاءة التلقي والتعليم، إنها ربما الذي يبقى حينما ننسى الذي تعلمناه، إنها على الأخص ما يجب أن نملكه أولا كي نتعلمه.

أزمة الثقافة في نظر مالك بن نبي

إن ما يثير الإعجاب على الخصوص في رجل مثقف حقيقة أن كفاءته في فهم ما لم يعرفه بعد هي أكبر مما قد عرفه. إذ يقال له: مثقف لأننا ندرك حين نبقى به أن عقله غير مغلق تجاه ما لا يزال غير معروف لديه" (مسقاوي)

فالدين هو الذي يستطيع أن يؤسس مجتمعا، والعلم لا يستطيع تأسيس مجتمع وإذا قيل لنا إن بعض المجتمعات تأسست على غير الدين، فهذا يعني أن المعارض يحمل كلمة (دين) ما لم نحملها نحن، إذ إننا نضع لها معنى آخر، فبالنسبة إلينا نحن المسلمين نضع فيها معنى الهداية هداية الله لخلقه ، ولكن بالمعنى الاجتماعي فكل عقيدة تقدم للفرد المبررات الأساسية التي تحدد سلوكه وتطبع وظيفة المجتمع نحوه. (مالك:2005، 109)

أما إذا طرحنا السؤال مرة أخرى ما الثقافة؟ فإننا في الحقيقة نواجه ضرورات اجتماعية معينة. فنحن إذن نطرح السؤال بطريقة أن الجواب لا يعيننا إلا من ناحية نظرية كما هو الأمر بالنسبة إلى الدارس في أمريكا مثلا أو في بقية العالم المتقدم الذي لا تؤثر عليه النتائج فنحن نطرح السؤال لأننا نبحث عن سفينة النجاة فموقعنا مختلف لأننا نبحث عن الجواب في ضوء محن عشناها ومررنا بها وذقنا مرارتها إذن فموقفنا ليس كموقف الآخرين.

الحقيقة أننا نواجه فقدان المبررات في مجتمعنا، فالشيء الأول والأخير الذي ننتظر أن تقدمه لنا الثقافة هو أن تمنحنا انسجاما يتكون عن طريقه المجتمع " الذي يتوق إلى الانفراج الفكري والثقافي المؤدي إلى النهضة كما أشار لها مفكرنا مالك بن نبي وهي بالطبع تحتوي مصطلح الثقافة الذي نقصده ونريد الوصول إليه من خلال أفكاره التي أدركت كل ما يساعد الإنسانية عامة والإنسان المسلم بصفة خاصة، على الانتعاش وتغيير الأوضاع والأفكار معاً.

5. عالمية الثقافة :

تختلف مقاربة ابن نبي لمفهوم العالمية كرسالة عن مفهوم عولمة العصر الصناعي وإن كان يرى أن هذه العولمة أضحت مع عصر الأنوار هي المجال بفعل العامل الفني لأية ثقافة تؤسس لحضارة جديدة على الصعيد العالمي.(مالك:1981، 193)

هكذا انطلقت فكرة ابن نبي عن الثقافة والحضارة كمشروع ينطلق من عصر تصفية الاستعمار، وبدا له في البداية مؤتمر باندونج هو المؤسسة في بنيتها السياسية لكي يغرس فيها فكرة الإفريقية الآسيوية كبنية تحتية تؤثر في تصحيح المسار العالمي، الذي يقود إلى سباق القوة.

هذا وكان ابن نبي في أبعاده ورأيته ثابتا لم يتغير حتى وفاته تجده ينظر إلى العالم بمحورين:

المحول الأول: محور واشنطن - موسكو.

المحور الثاني: محور طنجة- جاركارتا وهذا الذي يشغله دون نفوره من التعايش مع المحور الأول الذي يبدو لزائر من خارج الكوكب في نمطية واحدة في الأداء والإنتاج والانسجام وهذا ما أصبحت تعانيه المجتمعات العربية والإسلامية في تعاملها مع الآخر.

أما المحور الذي يشغل مفكرنا فيبدو للوهلة الأولى لأي زائر نمطية مختلفة من الفراغ والتأمل والبطالة فضلا عن اللامبالاة والفوضى هذه الثنائية التي طرحها بن نبي في أعقاب الحرب العالمية الثانية لا تزال هي نفسها تضع العالم كله في مشكلة الثقافة التي تفتقد للأفكار المولدة للتوازن المفقود.(مسقاوي:2004،

(13)

أزمة الثقافة في نظر مالك بن نبي

والواقع أنه إذا كانت العالمية قد انطلقت فجأة في منتصف القرن العشرين، فليس معنى هذا أنها لا تستمد بعض عناصرها الفكرية والاجتماعية من أصول بعيدة فإنها اتبعت فعلا تطور النشاط الإنساني.

والإنسان الآن - أكثر من ذي قبل يرى نفسه في مستوى عالي، وهو يفكر ويعمل في هذا المستوى في جميع الميادين، تلقائيا وطبيعيا، ولقد حتمت رسالته الثقافية بدورها - تماما كرسالته المصلحية البسيطة وجود "جهاز عالي" وهو جهاز اليونسكو "UNESCO" حيث تتلاحم شبكة الثقافة الإنسانية، فهو بمثابة قلب ذي نبضات عالمية تنقل في جميع الاتجاهات عناصر الحياة الضرورية لنموه الحضارة، واليونسكو تؤدي في الواقع - هذا الدور وهي تضيف إلى القيم الثقافية الخالصة مغزى عمليا في المدرة التأثيرية في صورة تنظيم عالي للثقافة.

الثقافة التي ينشدها الجميع، لقد مر الجهاز الثقافي بمرحلة "الصالون الأدبي" ثم الأكاديمية الإقليمية التي كانت في فرنسا قبل النهضة ووقتها ثم مرحلة الأكاديمية اليومية وأخيرا بالجهاز الذي احتوى كل الثقافات دون حدود وهو جهاز "اليونسكو". (مالك: 1981، 204-205)

فسواء مضينا في الشوط على محور (واشنطن- موسكو) أم على محور (طنجة - جاكارتا) فإن مشكلات الساعة الحاسمة واحدة هنا وهناك فإن تكامل النوع الإنساني وسلامته قد أصبح أهم ما يهم نفسية القرن العشرين واجتماعه وسياسته إلى يومنا هذا.

ونتيجة لهذا اتحدت المهمات الأساسية التي يتحمل عبئها الجيل الحالي في آسيا، وفي إفريقيا، وفي أوروبا، وفي أمريكا.

فالمثقف المسلم نفسه ملزم بأن ينظر إلى الأشياء من زاويتها الإنسانية الأكثر رحابة، حتى يدرك دوره الخاص ودور ثقافته في هذا الإطار العالمي. (مالك: 114)

هذا التغيير الذي أصاب المستوى لا يتوقف مطلقا على ظروف مادية كما يحسب الناس غالبا في بلادنا بل إنه يقوم على شروط أخلاقية روحية فهو يتم أولا في الأفكار قبل أن يتم في نطاق الأشياء.

فـ "غاندي" لم يكن يتصرف في صاروخ كوني أعني في "الشيء" ذي مستوى عالمي، وإنما كان يملك ضميرا رحباً حتى وسع العالم. فقد خَوَّلَ له هذا الضمير قدرا من العالمية أكثر مما تخوله الأقمار الصناعية لأصحابها اليوم، إذن المشكل بداهة مشكل أفكار لا غير، حتى وإن جَسَّدت وأصبحت وسائل فدائما السبق لها لا غير. (مالك: 115)

فهيبة الأمة قد تكفلها لها أحيانا الأفكار إذا ما تناغمت هذه الأفكار مع المرحلة التي تمر بها الإنسانية.

وكثيرا ما يخطئ المسلم في تقديره للأشياء إذ يبني عليها كل أحلامه متناسيا أن للفكرة الأهمية التي بها يرقى، يتطور ويساير العصر مهما بلغ هذا العصر من تطور.

سنظل نكرر ونُلج في تكرارنا أن أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل وإنما أزمة في الأفكار طالما يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكا واضحا.

فلكي نتغلب على مرضنا ينبغي أن نكتشف طريق الأمة المرشدة ولهذا ينبغي أن نختار من بين الاتجاهات التي تتجه نحوها الإنسانية فناخذ بزمام أخذها، ثم نسبق إلى الطليعة وبوسعنا أن نقول: إن الهند قد بلغت اليوم مرتبة الأمة المرشدة في بعض الميادين لا بفضل أنها تملك القنابل الهيدروجينية وإنما كان ذلك بفضل الروح التي خلفها لها غاندي فإذا بها تتصدر موكب الإنسانية في اتجاه السلام وقبل الصين المتوثرة بالمبادئ الكونفشيوسية . عليه نقول أن النهضة لا تنشأها الوسائل والإمكانات وإنما الأفكار التي تنتج لنا سلاما به نرقى نتطور ونحسن

أزمة الثقافة في نظر مالك بن نبي

استغلال ما صنعناه وأفكار مالك بن نبي التي تريد إظهار واقع المجتمعات الإسلامية لم تستثني الواقع العالمي الذي تحتم عليه الظروف أن يتعايش مع الثقافات العالمية الأخرى والتي أصبحت حتمية يفرضها العصر حيث لا قوة إلا قوة الفكرة ولا قيمة إلا تلك المقامة على الأخلاق الإنسانية. (مالك: 122-123)

فالبعد الثقافي بالنسبة لمفكرنا هو بعد أفكار وذلك في حسن اختيارها وتوظيفها ومحاولة إدراك أن الواقع يفرض التفتح مع الثقافات بمبدأ الأخذ والعطاء لا بأسلوب القابلية أو بالإنغلاق والتفوق " كن ابن مصيرك و لا تكون نسخة من غيرك". فالثقافة عنده هي حسن الإنتقاء لا الذوبان في ثقافة الأخر ويركز على عامل الدين واللغة كحتمية ومبادئ أساسية في ذلك.

فالعناصر الأربعة: المبدأ الأخلاقي والمبدأ الجمالي والمنطق العملي ثم الجانب التقني في الإنتاج هي العناصر التي تتكون منها ثقافة المجتمع حينما تصبح تاريخا. فالثقافة هي الأساس التربوي الذي يحدد معيار الصعود والهبوط بقدر تضامن هذه العناصر في بيئة الفرد.

ذلك السند الأساسي لمسار الحضارة في اتصاله بالثورة عبر الزمن التاريخي الذي يحدد مراحل الحضارة. فالحضارة هي القدر النهائي للثقافة التاريخية. وهي مركب الصعود إلى الحضارة في مداها العالمي ومركب الهبوط في سحيق التخلف. من هنا يتضح لنا أن الفكرة ليست مصدرا للثقافة من حيث هي فكرة عينية، بل هي الفاعلية المحيطة بها باعتبارها ذات علاقة بوظيفة الثقافة التي هي مجموع الشروط النفسية الزمنية التي ينطبع بها مستوى الحضارة في المجتمع، وهو مستوى تتغير فيه الأفكار بطريقتين:

الطريقة الأولى: في ظل ارتفاع مستوى الحضارة إذا كان الأوروبي ينظر إلى التقدم العلمي كميزة يمتاز بها عقله وإلى الحضارة على أنها فطرته والاستعمار على

أنه امتداد لحضارته خارج أوروبا. وكانت هذه الأشياء تحقق الإجماع في الداخل في حدود أوروبا والإعجاب في الخارج أي خارج حدود أوروبا.

المرحلة الثانية: في مرحلة هبوط الحضارة. فعندما يهبط مستوى الحضارة تنقطع الصلة بالأفكار المؤسسة للوسط الاجتماعي والتي جاءت من منابع خلفية وعقلانية صدرت عنها أساسا. وهكذا تكسب هذه الأفكار وجودا صناعيا غير تاريخي وبذلك تفقد كل معنى اجتماعي كما تفقد قدرتها على إبداع الأشياء، فقد ارتبطت تفاحة نيوتن بمرحلة نفسانية وعقلية أدت إلى اكتشاف الجاذبية هي ثقافة الغرب في بداية حيويته، لهذا كانت فكرة مالك بن نبي عندما نظر إلى النهضة الأوروبية والواقع العربي الإسلامي، الفكرة عنده هي الثقافة بالمعنى العام دون مراعاة ما ينجر عنها من لوازم وملحقات (عمر مسقاوي).

الحديث عن البناء الحضاري يدفعنا إلى تتبع ما قاله مالك بن نبي عن الثقافة "ليس بمفهومها الفلسفي الفكري فحسب بل بمفهومها اليرغماتي النفعي لأن المشكلة الأساس لا تنحصر في فهم الثقافة وإنما في تحقيقها علميا، لكن قبل هذا يرى " بن نبي أن الثقافة هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق، الجمال المنطق العملي، الصناعة وإذا فهمنا الأخلاق والمنطق العملي والصناعة فإن مقصود الجمال عند مالك بن نبي يرتبط بالإطار الحضاري للأمة، حيث يتصل هذا الإطار بذوق الجمال. بل "إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة" (مالك: 1979، 36-38).

الحقيقة أن الأزمة الثقافية حسب "بن نبي" هي المعدن الذي تصاغ منه الكثير من الأزمات في الميادين الأخرى، ومن هنا فلا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه. وإذا كان المجتمع ينظر إلى الإنسان الذي يتوفى على أنه قد مات موتا ماديا فكذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتا ثقافيا معنويا وتبقى القيمة الثقافية لكل فكرة

أزمة الثقافة في نظر مالك بن نبي

ولكل شيء تقوم على علاقتها بأفراد المجتمع. مع العلم أن لكل مجتمع خصوصيته الثقافية. لهذا تختلف المجتمعات لاختلاف ثقافتها (مالك:123).

ونحن إذا أردنا البحث في مشكلة الثقافة فإننا كما يقول "مالك بن نبي" وجدنا أنفسنا نواجه ضمن مشكلة أسلوب الحياة ومشكلة السلوك الذي ينسجم معها" ذلك أن المجتمعات التي تبغي النهوض فلا بد أن تُطهر عاداتها وتقاليدها وإطارها الثقافي بصفة عامة والذي سمّاها ابن نبي بالعوامل القتّالة. ولكي نفسح المجال للعوامل الحيّة والداعية إلى الحياة يجب أن نفسح المجال للاجتهادات الداعية إلى نهضة وتنمية الثقافة وتطويرها. إلا أنه ورغم كثرة التعاريف التي وصف بها بن نبي الثقافة في كتابه مشكلة الثقافة إلا أنها تعاريف تدور في فلك واحد مثل:

الثقافة مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة والوسط الذي ولد فيه.

الثقافة هي المحيط الذي يعكس حضارة معينة والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر.

الثقافة هي الجسر الذي يعبره الناس إلى الرقي والتمدن وهي أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ الآخر من السقوط من أعلى الجسر إلى الهاوية.

6. خاتمة:

وهكذا يتضح أن مجال ثقافة ما يحيل إلى الإطار الذي تنمو فيه حضارة تلك الثقافة. وعلى النخبة المثقفة أن تحمل المشعل فهي القاعدة التي ترتفع عليها الجماهير إلى مستوى الحضارة كما يقول مفكرنا مالك بن نبي لكن تبقى الفاعلية أهم شيء في حركية البناء. وفي هذا المقام يقول: إنّ الذي ينقض المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة وهو لا يفكر ليعمل، بل يقول كلاماً مجرداً (مالك:60). لهذا فمشكلة المجتمع تعود لأزمته الثقافية، كما أن سلبية الثقافة تعود إلى عدم فاعليتها، فهل ندرك هذا الزمن يا تُرى؟.

7. قائمة المراجع:

- السيف توفيق، الدار العربية للعلوم – ناشرون ط1 – 2006 لبنان .
الأعراف. آ 157.
- محمد شاويش، مالك بن نبي وشروط النهضة التبين، عدد 19 الجاحضية، ص 83
- أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص 206 ط:
- بن نبي مالك، أفاق جزائرية ت / الطيب شريف مكتبة النهضة الجزائرية بدون تاريخ،
- مالك بن نبي مشكلة الثقافة إصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر بدون طبعة وبدون تاريخ،
- ضيف الله بشير – فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي (قراءة جديدة) منشورات المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر) بدون طبعة، سنة 2005م، ص 83.
- بن نبي مالك، القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ط1، 1991، بيروت، لبنان.
- بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، ط1، 1988م، 76.
- بن نبي مالك، مجالس دمشق محاضرات ألقيت (1981-1982) دار الفكر بيروت لبنان 2005، بدون طبعة.
- بن نبي مالك، فكرة الأفريقية الآسيوية، ت. عبد الصابر شاهين دار الفكر دمشق سوريا ، بدون طبعة، 1981.
- مسقاوي كمال، مجلة العصر العدد 09-2004 مجلة ثقافية إسلامية، ص 13.

بن سليمان عمر

عمر مسقاوي: ولادة النهضة في فكر مالك بن نبي. الموقع: (www.Science-Islam.net)